- ٢ -

تشجيعُ سَيف الدّولة للأدبَاء وَالشّعَراء

لقد انتشى الشعر في بلاط سيف الدولة واهتزت أعطافه وسالت به الأودية وارتفعت له أعلام خافقة وقامت في ميدانه سوق نافقة ، ويرجع أكبر الفضل في إشعال جذوته وإيقاد شعلته إلى الأمير الحمداني الذي شُغِفَ بالعلم والأدب وفاز الشعر منه بأعظم عناية وأسمى رعاية ولقي الشعراء في أكنافه جاهاً عريضاً وغنى واسعاً ، فلقد نثر عطاياه لكل ناظم وفتح قصره لكل ناغم وأغدق منحه على المجيدين السابقين .

ومما ساعد على تقدير الشعر وتكريم الشعراء أن الأمير كان على جانب عظيم من الثقافة والبصر بمواطن الجمال والقدرة على تمييز الخبيث من الطيب .

وكان الأمير الحمداني يمتاز بذوق أدبي بالغ دفعه إلى وزن الآثار الأدبية بميزان الذهب على قانون النقد الصحيح وجعل في قدرته المفاضلة بين الشعراء والأدباء بلغة الناقد المتفحص . وبسبب هذه الروح التي بثها الأمير الحمداني سمقت شجرة الشعر الفينانة وأينعت ثماره وامتدت أغصانه . وكثر الشعراء الوافدون وتضاعف عددهم فكان بلاط الأمير ملتقى الشعراء ومنتدى الأدباء ومنهم بالإضافة إلى المتنبي أبي الطيب من الشعراء الفحول أبو العباس النامي والصنوبري وعلي بن عبد الله الناشيء والسريُّ الرَّفاء وأبو الفرج الببّغاء

وأبو الفرج الوأواء وأبو الفتح كُشاجِمُ وأبو نصر بن نُباتة السعدي وأبو العباس الصفري والخالديان وأبو القاسم الشيظمي وغيرهم .

ولقد عادت جهود الأمير على الأدب باليمن والبركة فبرَّزَ الشعراء في رحابه وبزوا أقرانهم وفاقوا أمثالهم وهذا هو الثعالبي يقول : « والسبب في تبريز القوم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهُم عن بلاد العجم وسلامةُ ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنُّبَط ومداخلتهم إيّاهم ، ولمّا جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم وبالجمع بين أدوات السيف والقلم وما منهم إلاّ أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفْضِل ـ انبعثت قرائحهم في الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا [1] .

ولقد كان جُودُ الأمير وعطاؤه عاملاً له أهمية كبيرة في تلك النهضة الشعرية التي شهدَتْها حلب ،ولقد ذاع صيت سيف الدولة بجوده وكرَمه حتى أنشأ بديع الزمان الهمذاني مقامة سماها « المقامة الحمْدانيّة » صوَّر فيها ما كان يجري في مجلس الأمير حيث عُرِض عليه فَرَسٌ أصيل لحظته الجماعة فقال : ـ أيكم أحسن صنعته جعلته صلته فكلٌّ جَهَدَ جُهْدُه وبذل ما عنده [2]. وهذه القصة الخيالية تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء وأمثالهم .

كما أن ثقافة الأمير وتذوقَه للأدب ونَقْده كان له دور مهم في ذلك الإشعاع الفكري والأدبي ، ويجب ألاّ يأخذنا العجب مما يروى عن سيف

---

(١) يتيمة الدهر (١ / ١٢ ـ ١٣) .
(٢) مقامات الهمذاني ص (١٥١) .

الدولة في هذا الشأن فقد كان كما اتضح لنا سابقاً – صاحب ثقافة واسعة عميقة ولقد هيأت له بيئته الخاصة التي نشأ فيها حياةً مثقفةً لها حظ من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة في بغداد .

وتظهر ثقافته في أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن وقدرته على التمييز الدقيق فيما يقال في مجلسه ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء وفي أن تتفرع فيها الثقافات فتزهر الفلسفة إلى جانب العلم وتزدان علوم الدين إلى جانب علم اللغة والأدب [1].

وحسبنا أن نقولُ إن هذا الجو الذي أوجده سيف الدولة في حلب وهذا الاهتمام الكبير الذي أبداه بالشعر والشعراء شجع كل من كان عنده قدرة فنية على قول الشعر والإجادة فيه ، فبائع البطّيخ وهو الوأواء الدمشقي أصبح شاعراً كبيراً وكُشاجم الذي قيل انه كان طباخ سيف الدولة أصبح مع هذا شاعراً ظريفاً وكذلك قيّما المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين مشهورين. ولقد كثر الشعراء في عهد سيف الدولة كثرة نادرة حتى أن الثعالبي يقول لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [2].

ولقد كانت ميزات سيف الدولة مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة فهو عربي من تغلب يعتز بنسبه ومجد بيته وفيه الطباع العربية التي اشتهرت في البيوتات الكبيرة فكان يطمح كل الطموح لحسن الأحدوثة ولذلك كان يهمّه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يُشيدُون

---

(١) مع المتنبي ص (١٨٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ١١) .

بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحاً فيه ، ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء وفخر ونُصرَة للضعيف ومعونة للبائس والفقير ، وكان يرى المجد والمروءة في الزهادة في المال معتزاً بالشرف مغدقاً على الأصدقاء والشعراء[1] .

ولقد كان الأمير الحمداني مقصد الشعراء والأدباء حيث ينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته وكان قد أمر بضرب دنانير خاصة للصلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً[2] .

نحنُ بجُودِ الأمير في حرَمٍ نَرْتَعُ بين السّعودِ والنّعَمِ
أبدعُ من هذه الدّنانيرِ لَمْ يَجْرِ قديماً في خاطر الكرمِ
فقد غدَتْ باسمهِ وصورتِهِ في دهرنا عُوذَةً من العَدَمِ

فزاده عشرة أخرى . والأمثلة كثيرة على ما لقي الشعراء في بلاط سيف الدولة من رعاية فائقة وعناية بالغة ، ولهذا لا عجب أن تكون حلب في عهده ملتقى الشعراء من الشرق والغرب .

ومن تلك الأمثلة أن أبا فراس كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولي ، وليس له إلاّ سيدي « يعني أبا فراس » :

لكَ جسْمي تُعِلُّهُ فدَمي لمَ تُحِلُّهُ
لكَ منْ قلبي المَكا نُ فَلِمَ لا تَحُلُّهُ

---

(١) ظهر الاسلام ــ احمد أمين ص (١٧٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٠) .

فارتجل أبو فراس قوله :

أنا إن كتتُ مالِكاً فَلِيَ الأمْرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنبج تُغِلّ ألفي دينار [1] .

وحدث أبو الحسن علي بن محمد الهَمَذاني قال : كنت واقفاً بين السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء يُنشدونَه فتقدم إليه أعرابي رثّ الهيئة فاستأذن الحجّاب في الإنشاد فأذنوا له . فأنشد :

أنتَ عَلِيٌّ وهَـذِهِ حَلَبُ قد نَفِدَ الزّادُ وانتهى الطَّلَبُ
بهذه تَفْخَرُ البِلادُ وبالـ ـأميرِ تُزْهَى على الوَرَى العَرَبُ
وعَبْدُكَ الدَّهْرُ قَدْ أضرَّ بِنا إليكَ مِن جورِ عبْدِكَ الهَرَبُ

فقال سيف الدولة : أحسنت ولله أنت ! ! وأمر له بمائتي دينار [2] .

ولقد كان للمتنبي منزلة خاصة لدى الأمير ولقي في ذُراهُ كرماً وافراً وعطاءً كبيراً فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار إزاء ثلاث قصائد يُنشدُها إيّاهُ كل عام [3] .

وقد أعطى سيفُ الدولة أبا الطيب المتنبي ضيعة بالمعَرَّة اسمُها صَفٌّ إقطاعاً له [4] .

وقد روى ابن حِجّةَ الحَمَويّ في ثمرات الأوراق « أن سيف الدولة انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل رجل شامي فأنشده :

---

(١) اليتيمة (١ / ٢١) .
(٢) اليتيمة (١ / ٣٠) .
(٣) الصبح المبنى عن حيثية المتنى ص (٤٦) .
(٤) أعلام النبلاء (١ / ٢٨٨) .

وكانوا كفَأروَسَوْسَوُا خلْفَ حائطٍ وكُنتَ كسِنَّوْرٍ عليْهِم تَسَقّفا

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببكائه فرقّ له وأمر بردّه وقال له : مالك تبكي ؟ قال : قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بَكَيْتُ ، فقال له سيف الدولة ويلك فمن يكونُ له مثل هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم . وكم كنت أمّلْتَ ؟ قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف [1] .

وذُكِر أن الشاعر الأحصَى دخل على سيف الدولة فأنشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له اعْذُرْ فما يتأخّر حَمْلُ المال إلينا فإذا بلغك ذلك فإننا لنضاعف جائزتك ونحسن إليك .

ثم اتفق أن حُمِلَ إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بَغْلٌ بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحصى فأخذ ما عليه من المال وأطلقه ثم دخل حلب ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها :

ومَن ظنَّ أن الرزق يأتي بحيلةٍ فقد كذَبَتْه نفسُه وهو آثمُ
يفوتُ الغِنى مَنْ لا ينام عنِ السُّرى وآخرُ يأتي رزقه وهو نائمُ

فقال سيف الدولة بحياتي وصل إليك المال الذي كان على البغل فقال نعم : فقال خذه بجائزتك مباركاً لك فيه [2] . وهذه القصة التي يغلب عليها الوضع تحمل بين طياتها دلالة على كرم الأمير وجوده .

---

(١) نخبة تاريخية ـ كانار ـ ص (٣٥٠) .
(٢) معجم البلدان ـ ياقوت (١ / ١١٤ ـ ١١٥) .

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيساً فارغاً واستأذنه في إنشاده فأذن له فأنشده قصيدة أولها :

حِبَاؤُكَ مُعْتادٌ وأمْرُكَ نافِذٌ وعَبْدُكَ مُحْتاجٌ إلى ألفِ درْهمِ

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً وأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه [1] .

ولقد ذاع صيت عطائه الواسع في سائر الأقطار الإسلامية وفي كل نادٍ ومحفل ، مما كان يدفع بعض الشعراء أن يمدحوه بُغْيَةَ النوال دون أنْ يقصدوا حلب .

ولم يقتصر مدح سيف الدولة على الشعراء بل ان بعض الشاعرات هزجن بكرمه وصدحن بأريحيته . فلقد روي عن أبي علي التنوخي — قال أخبرني ابن عبد الله السلامي أنه كانت له ابنة خال بغدادية مخزومية تقول الشعر [2] . وقال أنشدتني لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة :

لَوْلا حذَاري مِنْ أنْ أُلامَ على عِتابِ يَوْمٍ مِنْـــهُ وإعْتابِهِ
لَسرْتُ واللّيلُ هَوْدَجي وذُبابُ الـ سّيفِ في نَحْرِهِ إلى بابِهِ [3]

وهكذا نلحظ أن جانباً آخر غير الحرب لامعاً في شخصية الأمير الحمداني وهو نزعته الأدبية التي حفزته إلى العمل على نهضة الشعر والعلوم والآداب

---

(١) ابن خلكان (١ / ٤٦٢) .
(٢) عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد عبد الله السلامي الشاعر كانت شاعرة فصيحة مدحت عضد الدولة ببغداد وتوفيت سنة ٣٦٧ .
(٣) نشوار المحاضرة ــ التنوخي (٥ / ٢٧٠) .

ولقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية .

ويقول بروكلمان :ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول ليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه على العلوم والفنون ورعايته لها [1] .

ولقد أخذ بعض الباحثين على سيف الدولة تغلبه في الإفضال على الشعراء والأدباء فقد قال الأستاذ محمد كرد علي : كان رحمه الله يجوز أخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والأدباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا [2] .

وقال في محاضرة ألقاها في نادي الشهباء عام ١٩٢٣ « إن ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرَم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تُجبى هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ثم يأخذه شاعر واحد » . وهذا القول صحيح إذا قسناهُ بالمقياس المتداول في عصرنا ولكن عصر سيف الدولة يختلف عما نحن فيه كل الاختلاف فليس الغرض فيما نعتقد من هبات الأمير وعطاياه الكثيرة للمتنبي والناشىء وأمثالهم مجرد المدح بل كانت ألسنة الشعراء تؤدي في ذلك الوقت ما تؤديه اليوم أجهزة الإعلام من الإذاعة المسموعة والجرائد والإذاعة المرئية التي تستهلك معظم ميزانيات الدول . فكانت وظيفة الشعراء أن ينشروا فضائل من تقلد زمام الحكم من سياسة

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية (٢ / ٩١) .
(٢) القديم والحديث ــ محمد كرد علي ص (١٧٧) .

وحسن تدبير وإشفاق على الرعية وقهر للأعداء ، ولذلك كانت تجرى عليهم الهبات والصلات والجوائز . وبعبارة أخرى لقد كان الشعراء وسيلة دعائية للأمير الحمداني يتغنون بانتصاراته ويسوّغون هزائمه ويدعون الناس إلى نصرته .

وخلاصة القول أن بلاط الأمير الحمداني ضم أعظم شعراء العربية من مختلف الأوطان وكانوا يتسابقون في مدح الأمير ، وليس من شك في أن شخصيته هي التي جمعت هذا العدد الفريد من الشعراء في صعيد واحد فما أن قضى الأمير نَحْبَه حتى تفرق هذا الجمع وانفرط هـذا العقْدُ وانتثر هؤلاء الشعراء يضربون في بقاع الأرض شرقاً ومغرباً [1] .

وبالإضافة إلى كرم الأمير وسخائه كان ذرقه الفني وتقديره للشعر الجيد يدفع الشعراء لقصد بلاطه وعرض فنهم عليه .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني الذي يقول فيه المتنبي :

عَلِيمٌ بأسْرَارِ الدّيانـاتِ واللُّغى لهُ خطَراتٌ تفْضَحُ الناسَ والكُتُبا

كما أن حب المنافسة كان يحفز الشعراء إلى أن يقصدوا حلب حاضرة الأمير التي كانت تموج بالشعراء والأدباء والعلماء وذلك من أجل الحصول على التفوق والغلبة ، ويضاف إلى هذا أن سيف الدولة نفسه بطلٌ عظيم وفارس شجاع ومجاهد ذاد عن حمى الإسلام والدين فكان كل هذا باعثاً للشعراء إلى التغني بانتصاراته وبطولاته والحصول على عطاياه وهباته . ولذلك كثر الشعراء في بلاط سيف الدولة كثرة نادرة فلم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [2] .

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) . (٢) اليتيمة (١ / ١١) .